الفصل الخامس

المنظور السايكاترى للجنوح

1. كيفية النظر للجانح
2. المنظور التكوينى للجنوح
3. المنظور العضوى للجنوح
4. المنظور العضوى الاجتماعى
5. تعليـق

الفصل الخامس

المنظور السايكاترى للجنوح

1.كيفية النظر للجانح

يبدو أن الدراسات السايكاترية الأولى والمحاولات الرائدة فى ميدان تفسير جنوح الأحداث بدأت بالقول بربط الاضطرابات الجسدية ببعض الاضطرابات النفسية والعقلية والعاطفية . إن مثل هذه الدراسات السيكوسوماتية امتدت إلى دراسة كثير من ملامح البنية الجثمانية، كوزن الجسم، وطول القامة، وحجم الجمجمة، ونسبة الذكاء، ومحاولة كشف مدى علاقة هذه المتغيرات بنمو وتطور المنحرف.

إلا أنه حديثا اتجهت هذه الدراسات من خلال الدراسات التشريحية للمخ ودراسة الكيمياء العصبية والدراسات الجينية إلى إيجاد علاقة ما بين هذه الجوانب، وتشكل السلوك ضمن السياق .

وبذلك يظهر أن هناك تناولات عديدة ضمن هذين السياقين، من بينها: المنظور التكوينى، والمنظور العضوى الذى اشتمل على نتائج الدراسات التشريحية للمخ، ودراسات الكيمياء العصبية، والدراسات الجينية.

وبتوضيحنا لهذه التناولات نكون قد حاولنا تناول السلوك فى أكثر من بعد واحد من جهة، كما نكون قد حاولنا تبيان أهمية هذه المحاولات لتفسير الظاهرة قيد الدراسة.

2.المنظور التكوينى الجبلى:

اهتم هذا التناول بتفسير الجريمة عمومًا بردها إلى التكوين البيولوجى الموروث، حيث أرجع بعض المؤلفين ظاهرة الجنوح إلى ما أطلقوا عليه المجرم بالولادة (لومبروزو Lombroso)، أو(انحطاط فى النوع Dégénérescence) التى قال بها "موريل .Morel"، أو ما أطلق عليه فيما بعد " ديبى Dupé " التكوين المنحرف (Constitution Pervers). فى (Robert Plesser , 1989, P181).

فـ " لمبرونزو" ينطلق مثلاً من الحتمية البيولوجية للعدوان، " ويربط هذه الحتمية

بسببين : الأول يعود لمرحلة سابقة فى التطور، هى مرحلة الإنسان البدائى المتوحش؛ إذ يرجع إجرام الشخص إلى ارتداده الوراثى لهذه المرحلة، حيث وجد من خلال الفحوص التى أجراها أن جمجمة المجرم تشبه فى تركيبها التشريحى جمجمة الإنسان البدائى المتوحش . والسبب الثانى يرتبط بالانحطاطية المرضية التى تنشأ من مرض الصرع الذى ينتقل بالوراثة، حيث لوحظ تكرار السلوك الإجرامى لدى مرضى الصرع..." .(نمر أسعد، 1994، ص ص 109-110).

فالسلوك المنحرف حسب هذه النظرية بيولوجى المنشأ؛ فالمجرم إذًا هو مجرم بالولادة، غير أن هذا التفسير للانحراف بهذا البعد، دون ذكر الأبعاد الأخرى، يبعده عن الموضوعية؛ حيث أثبتت فيما بعد نتائج بعض البحوث الأنثروبولوجية أن كثيرًا من ضروب السلوك الإنسانى الذى كان يعد غريزيا ـ والسلوك العدوانى بالذات ـ إنما يعزى إلى تأثير النظم والعادات ومقاييس الجماعة التى يترعرع الفرد فى كنفها (هرمز صباح حنا، إبراهيم يوسف حنا، 1988، ص 483).

أما " لورنز Lorenz " فيرى أن هناك نزعة فطرية للسلوك العدوانى لدى الكائنات الحية ومن بينها الإنسان ، وافترض وجود طاقة عدوانية تعمل بطريقة هيدروليكية تشبه عمل البارود؛ فالطاقة العدوانية تتجمع داخل الإنسان، ولا تنطلق إلا بتأثير مثيرات خارجية (مثيرات العدوان) تعمل عمل الأصابع فى الضغط على الزناد، فتنطلق الطاقة وتتفرغ على شكل سلوك عدوانى : ضرب، سب، قتل، تخريب ... إلخ.

وافترض أن الإنسان يعتدى لإشباع حاجته الفطرية للتملك والدفاع عن ممتلكاته . فعندما يشعر بتهديد خارجى لنفسه أو لعرضه و ممتلكاته.. تتنبه غريزة العدوانية، فتتجمع طاقتها ويغضب الفرد ويتوتر، ويختل اتزانه الداخلى ويتهيأ للعدوان بوجود إثارة خارجية أو بعدم وجودها ؛ حتى يفرغ طاقته العدائية . ويخفف توتره النفسى، ويعود اتزانه الداخلى .. فإلحاح غريزة العدوان كإلحاح غريزة الجنس، لا يتوقف حتى يتم تصريف طاقتها فى عدوان مباشر على مصدر التهديد وإثارة، أو عدوان بديل إذا تعذر، أو فى نشاطات رياضية عنيفة ، فى (مرسى كمال إبراهيم، 1985، ص 52).

إلا أن هذا الكلام مردود عليه من حيث القول بأن الإنسان يسلك فى العدوان سلوكا

غـريزيا مرفـوضًا؛ حـيث إنه لا أدلة علمـية تثـبت أن العدوان حـاجة عـضوية كـالجنس والجوع...إلخ.

كـمـا أن " سكوت 1959 " لـم يثبت فى دراستـه ميكانيزمات عضـوية، تعمل كدافع داخلى للعـدوان كما هو الحـال فى الدوافع العضـوية الأخرى . "فى (مـرسى كـمـال إبراهيم، 1985، ص 53).

كمـا حاول بعض الباحثـين ومن بينهم " كرتشمـر، جلوك، شيلدون . Kretschmer " Sheldon , Gluck إيجاد ارتباط بين بناء الجسم ومزاج الجانح.

حـيث أكد "شـيلدون " المسلـمة القـائلة ببناء الجـسم الفـيـزيقى، و أهميـة العـوامل البيولوجيـة والوراثية فى تحديد شكل الشخصية، بصورة يـمكن عن طريقها إمكان التنبؤ بسلوكـها بعـد الإلمام بالملامح الشكليـة للظاهرة ، فى (د/ أحـمد ضـياء الدين، مـحمـد خليل، د ت، ص 169).

كما أكـد ذلك ما ذهب إليه " جلوك " من وجود ارتبـاط بين نمط الجسم والانحراف، فأكثر المنحرفين يتميزون بالنمط الجسمى المتوسط أو ذوى البناء الجسمى الرياضى .

وقد يرجع ذلك للتوقعات الاجتمـاعية، فالفرد ذو البناء الرياضى يتوقع منه أن يكون نشطًا، وأن يؤدى دورًا يتفق مع هذا البناء الجسمى، (محمد جميل منصور، فاروق السيد عبد السلام،1980، ص 583).

إلا أن التـجـارب التى أجـراها كل من "هيلى، هوايت، جـورنج ... إلخ، أثبـتت أن العوامل النـفسيـة تفوق العوامـل البيولوجية والفـسيولوجيـة كمـحددات للانحـرافات السلوكية .فى (Negleg ,K,& John , O, 1952 , pp, 89-91).

وهذا مـا أشار إليه " سـعد المغـربى 1966 "؛ إذ رأى أنه إذا كـانت بعض الصـفـات الجسمية مثل الطول والوزن، ولون الشعر والعـيون ينتقل من جيل على آخر عبر الجينات المورثة . إلا أنه لايمكن " ... الأخذ كلية بما يقال عن انتقال الصفات أو السمات المزاجية والاتجـاهات الاجتـمـاعيـة السويـة منها والشـاذة، والسـبب يرجع إلى أن البـاحثـين لم يستطيعوا فصل الإنسان عن المؤثرات الأخرى ..." (سعد المغربى 1966، ص 124).

وعليه رغم ما توافر من بينة عن أن معظم السلوك العدوانى الانحرافى يمكن تفسيره بواسطة عوامل تطورية أو وراثية، ومن أن الإنسان هو بالفطرة عدوانى، لهى دلائل ضعيفة للغاية، فى مقابل ما يتوافر من دلائل كثيرة وقوية، عن أن العوامل المكتسبة والاجتماعية هى أكثر تأثيرا بشكل هائل من العوامل أو الأسباب المتعلقة بالجينات أو الغرائز، فى تحديد أفعال عدوانية مفضية إلى الجنوح والجريمة.

3.التناول العضوى:

فى حين رد المهتمون بالأسباب العضوية السلوك المنحرف العدوانى أو (الجانح) عبر دراسات ذات طابع تخطيطى وتشريحى وكيمياوى وجينى للمخ .

3.1.دراسات حول النقص العصبى أو العصبى النفسى:

حيث استدلوا على ذلك ببعض الدراسات التى استعملت التخطيط المخى (E.E.G) لدى الجانحين؛ حيث اكتشفوا وجود موجات طويلة وبالأخص موجات من نوع thêta، تتمركز أحيانا فى الفص الصدغى .

اتصف هؤلاء الأطفال الذين فحصوا، بالحركة الزائدة منذ طفولتهم وميلا اكثر إلى الجنوح فى فترة المراهقة، وبذلك اعتبرت الشخصية المضادة للمجتمع نتاج اضطراب زيادة الحركة فى الطفولة، ويرجع هؤلاء الباحثون ذلك إلى نقص فى النضج العصبى، أو النفسى العصبى، مضاف إليه ما تهيؤه البيئة من أسباب مساعدة .

وهذا ما حاول إثباته كل من " اهرليتش، كيو " Ehrlich & Kugh 1956 عن طريق استعمال السجلات الكهربائية للمخ E.E.G بفحص السجلات الكهربائية للمخ لعدد من السيكوباتيين من نزلاء مستشفى الأمراض العقلية، فوجدوا ٨٠٪ من المجموعة كانت سجلاتهم الكهربائية للمخ من أنماط شاذة، فسرها الباحثان على أنها علامة على العجز عن النضج وسوء التكامل فى القشرة المخية، وقلة فى النضج الفيزيولوجى، واختلال فى التوازن الحيوى الهميوستازى ؛ حيث يعلق " اهرليتش و كيوه " بأن هذه الأنماط أشبه بأنماط الأطفال منها بأنماط الراشدين، فى (ريتشارد .م سوين، 1988، ص ص 441-442).

وفى هذا الإطار يذهب "د . برسكوت .و Prescott.W.1993 " انطلاقا من

الدراسات التى جرت عن أثر العزل الاجتماعى، والتجريد الحسى، والحرمان الاجتماعى من الأم على مخ صغار القرود والكلاب والفئران، حيث لاحظ أن هذه العوامل لا تؤدى إلى السلوك الراشد الاجتماعى المنحرف فقط، بل تؤدى أيضا إلى نمو غير طبيعى (شاذ) للمخ ووظائفه، وانطلاقًا من هذا بدأ فى البرهنة على صحة نظريته حول " نمو المخ السلوكى " التى تعتمد على التحكم فى الانفعالات الاجتماعية لتفسير الإحباط المرضى والعنف الناتج عن العزل الاجتماعى والحرمان من الأم عند صغار الحيوانات (القرود) حيث اختار مناطق ثلاث افترض تأثيرها فى النشاط الانفعالى فى المخ، وهى: (المخيخ ـ الجهاز الحوفى ـ الفص الجبهى)؛ حيث وصل إلى تسجيل أن الحرمان من عطف الأم يؤدى إلى خلل وظيفى فى نمو المخ ويتمثل فى الإحباط واضطراب الحركة النمطية والهياج، والعنف المرضى تجاه الحيوانات الأخرى .

وهكذا يذهب د/ برسكوت إلى القول: ".... إن الفشل فى إدماج الفرح والغبطة بمراكز المخ العليا المؤثرة فى الوعى بالفص الجبهى، يعتبر المسؤول عن سيكولوجية الأعصاب المعبرة عن العنف . وإن كل خلل فى معطيات البيولوجية العصبية / السيكولوجية العصبية يسببه تجريد حسى مكبر، ينتج عنه مخ مفكك، وبالتالى يترجم إلى سلوك مفكك، مثل : الإحباط، العزل، الهياج، والعنف، واعتماد كيميائى لعلاج الذات من هذا التجرد الحسى (Perscott.W.1993.P9)."

2،3.دراسات ذات طابع تشريحى للمخ:

لقد أثبتت التشريحات ـ رغم عدم وجود مركز فى المخ خاص بالعدوان ـ وجود علاقة بين ثلاث مناطق بالمخ تؤثر فى الانفعالات والسلوك، وهى: الفص الجبهى Frontal Lobe، والجهاز الحوفى Limbic System، واللوزة Amygdala، وأن القشرة المخية الأمامية الملونة Anterior cingulate cortex هى التى تعزز مناطق المخ الأخرى عندما يحدث نزاع أو شجار . كما وجد أن الجزء الأكثر تورطا فى السلوك العنيف هو اللوزة؛ حيث لوحظ العنف فى هؤلاء الذين لديهم نشاط كهربى زائد فى هذه المنطقة من المخ، وكما تقوم اللوزة بالاستجابة للخوف والانفعالات السلبية الأخرى . فى (د/ إيناس إبراهيم الجعفراوى، 2002، ص530)، وهذا يوضح لماذا يصبح بعض الأشخاص أكثر عنفا فى مواقف التهديد كما يقول الباحثون .

3-3- دراسات ذات طابع كيمياوى عصبى :

أثبتت هذه الدراسات فى إطار تقصى أسباب العنف أن القدرة على تجديد العقلية موروثة فى كل عصب، وأن التسمم النابع من مواد داخل الجسم هو العامل البيولوجى الأولى فى الأمراض العصبية والعنف السلوكى، وهذا حسب الفرضيات التى انطلق منها " د/ وينكل E.V. 2000 Winkle,، حيث يذهب إلى أن الاستعداد الجينى من الممكن أن يؤثر فى تحديد أى الأنسجة يكون أكثر عرضة للخل والإصابة بالمرض .وأن نمو الأعراض فى الاضطرابات العصبية والعقلية يعتمد على عوامل بيئية، لأن معلومات الحامض النووى D.N.A. غير كافية لتحديد المسارات الضخمة للتشابكات العصبية المتكونة بالمخ .

إن قدرة الطفل على التعلم موجودة حتى قبل الميلاد، كما أن التدريب على الاتصال بالعالم الخارجى يبدأ مع أول صرخة.. ولقد اكتشف السايكاتريون ضوابط فى العلاقة بين الآباء والأبناء تنظم الآليات العصبية بالمخ، وتؤثر فى السلوك المستقبلى والاستعداد للإصابة بالأمراض، (Hofer, M.A.1994 ,p9-18) .

إن إساءة معاملة الأطفال من الناحية العاطفية أو الجسدية مع عدم استطاعتهم التعبير عن مشاعرهم والدفاع عن أنفسهم تؤدى إلى ارتباك فى تفاعلات الكر والفر فى منطقة تحت المهاد Hypothalamus ؛ حيث التعبير عن الغضب؛ مما يولد سلسلة من المشاعر والأحاسيس المكبوتة خلال الحياة، (Guyton,A.c.1996,p69) .

عند استمرار كبت العواطف والأحاسيس تتقلص النبضات العصبية المارة خلال الأعصاب النورادرينرجية Noradrenergic neurons ، وتؤدى المعدلات من نورابينفرين المشبك العصبى norepinephrine Synapticإلى حدوث أعراض الاكتئاب أو إحباط، كما يؤدى حرمان هذه الأعصاب من الإشارات العصبية إلى ضمورها؛ مما يترتب عليه ضعف عمليات الأيض وتراكم بقايا نواتجه من السيتوبلازم . وهذه النواتج الإيضية غير المرغوب فيها تعتبر سمومًا داخلية ... يتخلى عنها الجسم بصورة آلية، وكنتيجة لتراكم السموم يوجه الشخص غضبه العرم كسلوك انتحارى أو إلى أى شخص برىء من خلال السلوك العدوانى العنيف ..." ، فى (د/ إيناس إبراهيم الجعفراوى، 2002، ص523-549).

3-4- دراسات ذات طابع جيني :

أظهرت الدراسات فى هذا الجانب أن السلوك يتحدد بواسطة خليط من التأثيرات الجينية والبيئية، تتحكم فى تركيب ووظائف المخ. إلا أنه لم يكشف حتى الآن جين واحد مسؤول عن العنف البشرى، فإن نتائج دراسات علم الجينات الجزئية تحبذ وجود أكثر من جين، من الممكن أن يتدخل ليدفع بالأشخاص إلى مثل هذا السلوك العنيف، ويعتقد الباحثون أن العدوانية فى الحيوان والإنسان من الممكن أن ترتبط بالجينات المتحكمة فى أيض السيروتين المركزى، إلا أن الدراسات التى أجريت حول أعراق مختلفة وبالأخص السود فى الولايات المتحدة الأمريكية، لم تثبت وجود جين أوجينات تربط بين العرق والسلوك المعادى للمجتمع، ولكن يوجد سبب للقلق .

فى حين أثبتت دراسات جينوميا الجريمة أن استخدام هندسة الجينات لتعرف السلوك العدوانى للأشخاص التى أشار إليها "عبد الباسط الجمل 2001 " والتى أجريت على أكثر من 1000 شخص بولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية، أن بعض الأشخاص لديهم الاستعداد الوراثى لارتكاب الجريمة. أما الأشخاص الآخرون فليس لديهم هذا الاستعداد لارتكاب الجريمة .

إن الدراسات من هذا النوع طرحت عدة تساؤلات بين العلماء ، ساهمت فى الانتقال بجينوميا الجريمة من تعرف سلوك الجينات إلى استخدام جينوميا الجريمة فى عديد من المجالات التطبيقية المختلفة، منها : تعديل السلوك الجينى العدوانى، استخدام البصمة الوراثية كدليل جنائى، وإنتاج أسلحة يمكن التحكم فيها من خلال البصمة الوراثية . (د/ عبد الباسط الجمل، 2001، ص ص 169- 181).

4.المنظور العضوى / الاجتماعى :

يظهر أن هناك ميلاً إلى القول من خلال التناول العضوى، أن سبب السلوك الجانح أو المضاد للمجتمع مصدره التفاعل بين الجهاز العصبى من جهة، والبيئة الاجتماعية من جهة أخرى، وهذا ما فسر به " ماكورد و ماكورد " فى نظريتهما المسماة بـ " النظرية الاجتماعية العصبية السببية، السلوك الجانح .

وهى نظرية تذهب إلى القول بالتكامل والتوليف بين أكثر من تفسير (تفسير عصبى

وتفسير اجتماعى) يمكن أن يؤدى إلى تفسير مقبول لهذا الاضطراب، فى (د/ محمد شحاته وآخرون، 1974، ص 247) .

غير أن هذه الدراسات ما زالت مترددة فى إرجاع السلوك المضاد للمجتمع إلى سبب وراثى فعلا أو سبب عضوى معين . ولعل ما ذهب إليه الزوج " ماكورد " من تفاعل مجموعة عوامل فيزيولوجية، بيولوجية بيئية قد يكون تفسيراً أوسع من رد السلوك المنحرف الجانح إلى سبب واحد، وهذا ما أكدته الدراسات التوليفية الحديثة للظاهرة.

4. تعليق على المقاربة السايكاترية

يظهر عمومًا أن المقاربة السايكاترية، وإن كانت تميل إلى المعطيات التجريبية إلا أنها تبقى تشتكى من أن السلوك الإنسانى سلوك له جذور بيولوجية فيزيولوجية ومتأثر بالمعطيات البيئية؛ مما يجعل النقاش يرجع بنا إلى مقولة أولوية الوراثى على المكتسب أو العكس، وهو صراع دام طويلا . إلا أن الدراسات الحديثة توصلت إلى اتفاق أن هناك تفاعلاً بين العاملين، وأحسن مثال على ذلك ما وصل إليه الزوجان "ماكورد" وغيرهم.

غير أن هناك أدلة قوية حول الدور الذى تلعبه العوامل الوراثية والعضوية فى إبراز الاستعداد لأنواع الجنوح كتعاطى الكحول و المخدرات مثلا .. لكن يبقى هذا دليل ضعيف، حين يتعلق الأمر بالاستعداد الوراثى للجنوح بالمفهوم الواسع .

لكن لا ننفى أن هناك أسئلة كثيرة تبقى عالقة فى هذا المجال، وهى مثلاً ووفقًا لهذا المنظور . هل إجرام الأب أو الأم، أو تعاطيهما للكحول أو إدمانهما على المخدرات بالضرورة سيكون لأبنائهما النصيب نفسه كذلك ؟ هل الأطفال الذين أصيبوا بأمراض عقلية أو عضوية فى طفولتهم سيكونون أكثر عرضة للسلوك المنحرف، مقارنة بالمراهقين ذوى الصحة الجيدة خلال الطفولة ؟.